

الفصل الثاني

البعد التنظيمي، والمنهج التربوي والبعد السياسي عند ابن السنوسي

المبحث الأول

البعد التنظيمي عند ابن السنوسي

إن البعد التنظيمي يظهر في شخصية محمد بن علي السنوسي في بناء الزوايا التي يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوي الذي سار عليه، فأما الزوايا فهي ركيزة نظام الحركة السنوسية وهي التطبيق العلمي لأفكار ابن السنوسي التي دعا إليها.

إن نظام الزوايا كان معروفاً في العالم الإسلامي، والشمال الأفريقي خصوصاً، فكلمة الزاوية تطلق عند الطرق الصوفية على مكان يختلي فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلاً ونهاراً منقطعين عن الناس وعن الحياة مكثفين بكفالة الناس لهم، على يد رجال القوافل الذين يضربون في الطرق الصحراوية، وينزلون بهذه الزوايا التي غالباً ما كانت مواقعها في أماكن خلوية بعيدة عن العمران، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحسبها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقريباً إلى علمائها المشرفين على طريقها الصوفية.

أما الزوايا السنوسية فهي تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل والمضمون؛ أي من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها⁽¹⁾. لقد استطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة واعية، وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية؛ وقد تحدث ابن السنوسي في إحدى رسائله عن الزاوية فقال: «الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده... والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد

(1) انظر: في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت، ص(255).

ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان»⁽¹⁾.

وقال في رسالة أخرى: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منه (يعني الزاوية) ويدوم، من تعلم العلم وتعليمه، وإقراء القرآن وتفهمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها»⁽²⁾. وقال في رسالة ثالثة: «رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة، وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم... وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة وتوسع الإدارة»⁽³⁾.

لقد استطاع ابن السنوسي أن يؤسس تنظيمًا هرميًا للحركة فكان تشكيله كالآتي:

- 1 - شيخ الطريقة أو رئيس النظام وهو الرئيس الأعلى لها.
- 2 - مجلس الإخوان (الشورى)، ومهمته مساعدة شيخ الحركة في تعيين شيوخ الزوايا.
- 3 - شيوخ الزوايا.

4 - الإخوان ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة⁽⁴⁾ كما أصبحت في أواخر حياة ابن السنوسي زاوية الجغبوب تمثل عاصمة الحركة، وجعل في البناء التنظيمي في الحركة زوايا رئيسية أو زوايا عليا، يرأسها شيوخ الحركة السنوسية الكبار، كزاوية أبي قبيس بمكة، وزاوية البيضاء، وزاوية درنة، وزاوية بنغازي، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا، كما كانت مجالس الدرس فيها أعلى مستوى وأكثر تنوعاً واستجابة للحاجات الدينية والعقلية⁽⁵⁾.

استطاع ابن السنوسي أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المخابرات والمخاطبات ولجان التفتيش، وفق نظام دقيق تلتقي أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية، وكانت تلك الزاوية قد انتشرت في تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن، والسودان الغربي (تشاد)، وكانت تقارير هذه البلاد ترد أولاً إلى بنغازي ثم ترسل إلى الجغبوب بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة⁽⁶⁾.

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(143).

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(237).

(3) المصدر السابق نفسه، ص(237).

(4) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص(133).

(5) انظر: تاريخ المغرب العربي الحديث (ليبيا)، محمود عامر، ص(133).

(6) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(50).

وكانت العقلية التنظيمية عند ابن السنوسي تهتم بالتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، وكان تخطيطه يعتمد على تحفيزه لأتباعه والاستعداد لما سيواجههم في المستقبل وكان فهمه لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]. وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

وجعلت من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العاملة توجيهاً سديداً، فأصبحت مراكز إصلاح إنسان متكامل، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية⁽¹⁾.

إن البناء التنظيمي للزوايا في الحركة السنوسية يدلنا على أن ابن السنوسي استفاد من سنة الأخذ بالأسباب استفادة كبيرة، وكان مقتنعاً بأن نهوض الأمة يستلزم من العاملين من أجل هذا الهدف أن يستوعوا سنة الأسباب، وأن يحسنوا التعامل معها، بحيث يستطيعون أن ينزلوها على أرض الواقع.

إن مفهوم التوكل عند ابن السنوسي، يعني الأخذ بالأسباب المادية المتاحة مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، ولذلك استطاع أن يبني البناء التنظيمي البديع المتين، وفق أسس ونظم رائعة وإليك تفصيلها:

أولاً - الأسلوب الذي تبنى به الزاوية:

تبنى الزاوية بالاتفاق بين أحد القبائل التي ترغب في بنائها مع ابن السنوسي ويكون البناء وفق الأسلوب الآتي:

- 1 - تبنى الزاوية في قطعة من الأرض المختارة بالاتفاق مع القبيلة التي تملك الناحية ومع ممثل ابن السنوسي أو ابن السنوسي نفسه.
- 2 - يعين ابن السنوسي لهذه الزاوية رئيساً يلقب بالشيخ) إذا كانت الزاوية قد بنيت، وإن لم تكن فيخطط الشيخ زاويته في الموضع المتفق عليه وتكون أرضها وقفاً، وعادة تكون على ربوة عالية تشرف على ما حولها ويتوخى فيها المناخ الصحي⁽²⁾.
- 3 - تكون تكاليف بناء مسكن الشيخ والمسجد والمدرسة من الأهالي.
- 4 - للزاوية حرم كبير يحيط بها من الجهات الأربع؛ يكون آمناً لمن دخله واستجار به،

(1) انظر: دراسات وصور، ص(286).

(2) انظر: السنوسي الكبير، ص(31).

ولا يجوز أن يطلق داخله الرصاص، أو يشهر السلاح، وكذلك المشاجرة وإعلاء الصوت بالغناء أو الخصام، كما يمنع فيه رعاية الحيوانات⁽¹⁾.

5 - من المؤلف أن يرسل ابن السنوسي عدداً من (الإخوان) بينهم من يشتغل بالبناء والعمارة والتجارة وكل المهارات التي تحتاج إليها القبيلة في تشييد الزاوية⁽²⁾، ومن الطبيعي أن يستغرق البناء وقتاً يطول أكثر من العام، ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولاً ثم دار لإقامة الشيخ وأسرته، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية في النهاية بيوتاً لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزناً لحفظ المؤن وإسطبلاً وبستاناً ومتجرأ على الأقل، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم، وفرناً لسد حاجة السكان بالخبز⁽³⁾، وتقوم حولها مبان أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالي ليأوا إليها في موسم الصيف، ويكون لها متسع من الأراضي الزراعية والآبار الجوفية والصهاريج لحفظ الماء⁽⁴⁾.

ثانياً - مواقع الزوايا:

تميزت مواقع الزوايا، بصفات سياسية وتجارية، وعسكرية؛ فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنتشر في الدواخل أكثر من انتشارها في السواحل، وذلك راجع إلى حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن نفوذ السلطة الحكومية، ولذلك فضل ابن السنوسي أن يتوغل بزواياه في الصحراء، وحرص على أن يوضح غرضه الدعوي من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثماني في ليبيا تفادياً للصدام بها، فكتب إلى مصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك: «إن الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان»⁽⁵⁾. وأوضح نفس الغرض الديني للزاوية للمشير محمد أمين باشا والي طرابلس الغرب العثماني فقال: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة، ليحصل المقصود منها ويدوم، من تعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن وتفهمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها»⁽⁶⁾.

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(31).

(2) انظر: المجتمع الليبي، ص(314).

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص(24).

(4) المصدر السابق نفسه، ص(25).

(5) انظر: المصدر السابق، ص(24).

(6) المصدر السابق نفسه، ص(25).

وإلى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا، فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة، فقد أقيمت معظم الزوايا في طريق تجارة القوافل، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية في الأراضي الليبية: الطريق الأول للقوافل يتجه جنوباً من الساحل الليبي عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والطريق الثاني ينعطف جنوباً غرباً عبر غدامس وغات إلى تمبكتو، والطريق الثالث يسير جنوباً شرقاً عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيللا إلى وادي ودارفور الغني بخصبه وثروته، والمتتبع لمواقع هذه الزوايا في الأراضي الليبية مثلاً يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل ابن السنوسي يستخدم زواياه والقبايل التي توجد الزوايا في أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها، مما كان له أثر كبير في تحريك عجلة البلاد الاقتصادية، بسبب دور الزوايا في تشجيع تجارة القوافل التي كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين مورداً هاماً في حياة البلاد الاقتصادية⁽¹⁾، زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذي حث عليه ابن السنوسي أهل القبيلة أو القبائل الواقعة في أراضيها الزاوية أو الزوايا⁽²⁾.

ولا تقل الأهمية العسكرية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية، فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للإخوان السنوسية الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج، ومن ثم بنيت الكثير من الزوايا على أنقاض الأطلال الإغريقية والرومانية فيما مضى والعثمانيين فيما بعد. من الضروري بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التي تقوم بها القبائل المتوغلة في الصحراء، هذا إلى جانب أن ابن السنوسي اتبع في إنشاء الزوايا نظاماً خاصاً يدل على الأهمية العسكرية للمواقع التي اختارها للزوايا، فبدأ من مواقع على شاطئ البحر المتوسط وبنى بهذه المواقع الحصينة زوايا تبعد كل زاوية عن التي تجاورها مسافة ست ساعات، ثم أنشأ خلفها زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها، حتى إذا هوجمت الزوايا الأمامية التي بالشاطئ استطاع الإخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفية⁽³⁾، وبمعنى آخر استطاع ابن السنوسي أن يقيم من الزوايا خطوط دفاع متتالية تساند الخط الثاني الخط الأول، ويساند الخط الثالث الخط الثاني، وهكذا، وكل هذا تم بدون أن يثير ابن السنوسي نائرة أو شكوك الحكومة العثمانية⁽⁴⁾.

يقول بريشارد: «إن من درس توزيع الزوايا السنوسية في برقة يلاحظ أنها أقيمت وفق

(1) انظر: دراسات في التاريخ الليبي، مصطفى بعيو، ص(60).

(2) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(258).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(22).

(4) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (258، 259).

خطة سياسية اقتصادية، فقد بني عدد كبير منها على منشآت يونانية ورومانية، وأسست على طرق القوافل الهامة وفي مواقع دفاعية قوية»⁽¹⁾.

وقال شكيب أرسلان: «وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها، وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهار صافية، وقل إن مررت بزواية ليس لها بستان أو بستانين، فيها من كل أنواع الفواكه»⁽²⁾.

ثالثاً - وظائف الزاوية:

كانت الأعمال التي تقوم بها الزوايا كالاتي:

- 1 - التنفيذ العلمي لأحكام ومبادئ الحكم الشرعي بين المواطنين، والتربية الدينية والخلقية للأتباع والإخوان وإعداد الدعاة.
 - 2 - الدعوة إلى الالتزام بالفضائل وتجنب الرذائل والقذوة الحسنة التي وجدها الناس في شيوخ الزوايا.
 - 3 - الاهتمام بدعوة الشعوب الوثنية وهذه وظيفة الزوايا المتغلغلة في الصحراء الكبرى والتي وصلت في قلب إفريقيا الغربية والسودان، ولقد اهتمت هذه القبائل إلى الإسلام طائفة مختارة.
 - 4 - تنقية الإسلام مما علق به على يد الغلاة من المتصوفة من بدع وتعاليم تبعده عن سماحة عقيدته، وأصوله المحكمة.
 - 5 - قامت بدور تعليمي، فقد كانت أشبه بالمراكز الإسلامية المنتشرة في العالم، وكانت الزاوية تمثل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن يتميز من الأطفال يلتحق بعاصمة الزوايا سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التي صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن الكريم، والتي حوت مكتبتها ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية⁽³⁾.
- وكانت المناهج التربوية في الزوايا تشتمل على جميع العلوم الإسلامية من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول الفقه، والفرائض، والتصوف، والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها.

(1) انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص(78).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (1/298).

(3) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(262).

- 6 - كانت الزوايا تدرب تلاميذها على إتقان الحرف والصناعات، مثل صناعة البارود والأسلحة.
- 7 - قامت الزوايا بدور اجتماعي مهم، ألا وهو ما ضمته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بين القبائل، وتشجيعها على الاستقرار، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزوايتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعاً من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً.
- 8 - شجعت الزوايا الحركة التجارية والزراعة، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع، وكانت تقوم بتقديم مساعدات وتسهيلات لراحة المسافرين التجار، مما شجع على التبادل التجاري بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر في أرض الزاوية.
- 9 - قامت الزوايا بدورها الجهادي في مواجهة الغزو الفرنسي المتقدم وسط إفريقيا وفي الكفاح ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، ولولا الله ثم استعداد الزوايا الجهادي لما استطاع الليبيون أن يصمدوا ضد إيطاليا أكثر من عشرين سنة⁽¹⁾.

رابعاً - السلطة في الزاوية:

تألف السلطة في الزاوية من شيخ الزاوية وهو المسئول الأول، ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين، ومهمة هذا المجلس هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات، وشيخ الزاوية يطلق عليه اسم المقدم - وهو كما يقول أرسلان «القيم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام، ويليه وكيل الدخل والخرج وإليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية، وبالإضافة إلى هذين هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم أطفال القبيلة ويعقد فيها عقود النكاح ويصلي على الجنائز»⁽²⁾.

ولا يخطب هذا الشيخ الجمعة لأنها من مهام شيخ الزاوية (مقدمها)، ومن مهام شيخ الزاوية التي ذكرها بريشارد «هو الذي يمثل رئيس النظام، ويقود رجال القبيلة في الجهاد، ويصل بين القبيلة ورجال الإدارة العثمانيين، ويقوم بضيافة المسافرين ويشرف على حصاد الزرع ويؤم صلاة الجمعة ويساعد في الوعظ والتعليم»⁽³⁾.

(1) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(263، 264).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي (1/298).

(3) انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص(80).

خامساً - طريقة فض المنازعات في الزاوية:

يتخذ رئيس الزاوية مجلساً من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل وجوها، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التي يتولى فيها منصب القضاء الحكم في القضية، وما كان يفض بطريقة التقاليد المتبعة والعادات فيحسم أيضاً بذلك، ومنها ما يفض بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ المفعول. وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون رئيس الزاوية بشيوخ القبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له ويضرب لذلك موعداً يحدد زمانه ومكانه وهناك يحسم بدون عناء، وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه، والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ يرفع إلى الجغوب حيث يصدر القرار النهائي⁽¹⁾.

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على وثيقة بتاريخ 9 رجب 1297 هـ تتحدث عن خصام وقع بين أهالي هون وسوكنه استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل الإشكال، والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً من أعيان هون إلى متصرف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف⁽²⁾.

سادساً - أراضي الزاوية:

كانت أراضي الزاوية موقوفة عليها فلا تباع ولا تشتري وتبقى مرتبطة بالزاوية، ويتم وقفها عادة بعد امتلاكها الذي يكون عن طرق مختلفة، منها الهبة والتبرع ومنها الشراء ومنها إحياء الأراضي البور، وإصلاح الآبار الخربة، ومنها نزح المواقع المتنازع عليها بين الأفراد والجماعات برضا المتخاصمين وتحويلها للزاوية⁽³⁾. وقد ذكر المؤرخ الدجاني إحدى الرسائل التاريخية تبين كيف تتحول الأرض المحيطة بالزاوية إلى وقف. والوثيقة هي عبارة عن رسالة بعث بها أحد الإخوان إلى أحد علماء طرابلس يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة، ويرد فيها «وأيضاً نخبركم أنه في محل ببرقة يقال له أجداية قصرين معلومات، والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة وزاوية راغبين في الأستاذ أن ينشئ لهم زاوية هناك، وكتبوا حججاً في إعطاء تلك الأرض ومهدوا إلى كل المشايخ وأرسلوا منهم واحد مخصوص إلى حضرات جنابه عليه السلام يعني ابن السنوسي⁽⁴⁾ والقصد لا يتعدى على الأرض، وتاريخ الرسالة 15 محرم 1276 م أي قبل وفاة ابن السنوسي بشهر، فالأرض في هذه المثل أعطيت للزاوية هبة وتبرعاً من

(1) انظر: المجتمع الليبي، ص(315).

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(239).

(3) المصدر السابق نفسه، ص(240).

(4) انظر: دار المحفوظات بطرابلس نقلاً عن الحركة السنوسية، ص(241).

مشايخ القبيلتين، ثم صدر فيها مرسوم بتحويلها إلى وقف⁽¹⁾. وكانت مساحة أراضي الزاوية كبيرة نسبياً وتصل أحياناً إلى «2500» هكتار بعضها مزروع والبعض الآخر يترك للرعي. وقد ذكر ريتشارد أن مجموع أراضي الزاوية في برقة يبلغ نصف مليون هكتار⁽²⁾.

ويقوم بزراعة الأرض سكان الزاوية تحت إشراف شيخها ويساعدهم في الزرع والحصاد رجال القبيلة، وقد ذكر شكيب أرسلان أن من عادة سكان الزوايا أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية، ولذلك يسهل العمران بدون نفقة كبيرة⁽³⁾.

وكانت الزوايا مختلفة من حيث الكبر وعدد السكان، وذلك بحسب أهميتها، وكان يبلغ عدد السكان في أصغر الزوايا حوالي الخمسين بما في ذلك الأطفال والنساء، ويصل العدد في زوايا إلى المائة، أما الزوايا الكبيرة، كالجبوب فيتجاوز الألف، ولم تكن «الزاوية» مقصورة في تنظيماتها على هذا العدد من سكانها وإنما على القبيلة التي تقيم في منطقتها، فسلطاتها تسيّر شئون أفراد القبيلة الذي يبلغ عددهم أضعاف عدد سكان الزاوية⁽⁴⁾.

سابعاً - موارد الزاوية:

تتكون موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية⁽⁵⁾. وقد كانت الهبات الخيرية تقدم من أهالي القبيلة. كما كانت الزاوية تجبي الزكاة من القبيلة رسمياً، بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من الضرائب، وأعطت لها حق جباية الزكاة، وكانت «الزاوية» تنفق بعض هذه الموارد على احتياجاتها وفق نظام معروف فيها، أما ما يتبقى فيبعث إلى المركز الرئيسي حيث يتصرف فيه رئيس النظام⁽⁶⁾.

ثامناً - التعليمات الخاصة بنظام الزوايا:

كانت هناك تعليمات وأعراف وعادات تلتزم الزوايا بتطبيقها، ومن ذلك ما ذكره الأشهب من أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلا بعد استشارة رئيس النظام وأخذ موافقته وتكون الزاوية ملزمة بنفقات هذا الزواج والإنفاق على الزوجة وأولادها. أما في حالة ما إذا تزوج الشيخ بأخرى

(1) المصدر السابق نفسه، ص(241).

(2) انظر: عشر سنوات في بلاط طرابلس، ص(77).

(3) انظر: حاضر العالم الإسلامي (1/298).

(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(242).

(5) انظر: السنوسي الكبير، ص(33).

(6) انظر: الحركة السنوسية، ص(242)، ومعنى رئيس النظام شيخ الطريقة.

نفقات ذلك على حسابه الخاص، كذلك حدد بدقة ما يأخذه شيخ الزاوية سنوياً:

- 1 - يتألف كساء شيخ الزاوية سنوياً من عشر بدل وتتكون البدلة من (قميص وسروال وغطاء الرأس وحذاء) شريطة أن لا يكون منها حرير أو جوخ، وكذلك حرامين صيفي ومثلهما شتوي وبرنس، ولشيخ الزاوية الحق في شراء سلاحه وفرسه الخاصين به من أجود الأنواع، وله أيضاً مهر ونفقات زوجة واحدة، وإذا ما أراد أن يتزوج مثنى أو ثلاث أو رباع فيكون ذلك على نفقته الخاصة.
- 2 - لشيخ الزاوية الحق في تعيين معلم الصبيان والمنادي للصلاة (المؤذن) وعدد من الخدم والعمال حسب مقتضيات الضرورة وتكون نفقاتهم وأجورهم من موارد الزاوية.
- 3 - من واجبات شيخ الزاوية إحضار الطعام الكافي لعشرة أشخاص يومياً في موعدي الغذاء والعشاء وذلك باسم الضيوف المحتمل مجيئهم للزاوية، فإن نقص هذا العدد فعليه إحضار ما يكفي في وقته، ولا يتجاوز الطعام نوعاً واحداً إلا في الحالات الخاصة.
- 4 - إذا تجاوز عدد الضيوف خمسة أشخاص ورأى الشيخ أن ينحر لهم فله ذلك.
- 5 - لشيخ الزاوية الحق في أن يختص بال عشر من محصولات الزاوية وذلك للإئناق منها في حالاته الخاصة، وفيما يترتب عليه لأقاربه الذين لا حق لهم من موارد الزاوية.
- 6 - على الشيخ أن يحتفظ بما يكفي لنفقاتها سنوياً من مجموع الواردات وإرسال الباقي منها إلى المركز الرئيسي.
- 7 - لا حق لشيخ الزاوية أن يضيف أقاربه على حساب الزاوية، وتفادياً لضيق ذات يده فقد منح عشر الواردات، وسمح له بامتلاك المواشي وتعاطي الزراعة لحسابه الخاص كي يواجه بذلك نفقاته الخاصة التي لا حق له في أخذها من أموال الزاوية، وله الحق في أن ينحر لنفسه وزوجته الأولى وأولاده منها شاتين أسبوعياً.
- 8 - للعمال وخدم الزاوية الحق في أكل اللحم كل يوم جمعة من الأسبوع.
- 9 - لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزاوية المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى هذه الحدود.
- 10 - على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنوياً (كلهم أو بعضهم) إذا ما رأوا وجوب ذلك، وعليهم أن يتشاوروا في تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعي لعقد الاجتماع.
- 11 - إذا التجأ شخص أو أشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما فعلى الزاوية والحالة هذه حمايته والسعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء بموجب نصوص الشريعة أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة.

12 - تتكون موارد الزاوية من الزراعة وتنمية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية⁽¹⁾.

تاسعاً - أسماء بعض الزوايا التي أنشأها ابن السنوسي :

1 - زاوية أبي قيس بمكة المكرمة وهي أولى الزوايا السنوسية على الإطلاق، تم تأسيسها عام 1242 هـ وكان أول شيخ لها العلامة عبد الله التواتي، ومن بين من تولى مشيختها السادة: مصطفى الغماري، حامد غانم المكاوي، علي حامد، الشارف حامد، الصادق السنوسي حامد.

2 - زاوية المدينة المنورة، تم إنشاؤها عام 1266 هـ وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الشفيح، ومن بين من تولى مشيختها: العلامة مصطفى الغماري، ومحمد عبد الله الزاوي، عبد السلام فركاش.

3 - زاوية جدة (الحجاز).

4 - زاوية الطائف (الحجاز).

5 - زاوية منى (الحجاز).

6 - زاوية بدر (الحجاز).

7 - زاوية البيضاء (برقة) أنشئت عام 1257 هـ وهي أول مركز رئيسي في ليبيا وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن حمد الفيلاي ومن بين من تولى مشيختها الأعلام: عمران بن بركة الفيتوري، حسين الغرياني، محمد بن إبراهيم الغماري، العلمي الغماري، محمد العلمي الغماري.

8 - زاوية مارة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، وكان من بين من تولى مشيختها: أحمد علي أبو سيف، أحمد بن إدريس الأشهب، عبد الله أبو يوسف.

9 - زاوية درنة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، ومن بين من تولى مشيختها: مفتاح خوجة، السنوسي الغرياني عبد الرحمن العجال.

10 - زاوية الجوف (واحة الكفرة) كان ابن السنوسي قد عهد بينائها إلى المشايخ الحاج مصطفى أبو شايذة، الحاج محمد أبو حليقة، عقيلة الحليق وذلك عقب إجلاء قبائل الثبو البربرية بضغط من قبائل زوية العربية، وكانت الكفرة يومذاك مأوى للدعارة والصوص ومقل حصين لقطاع الطريق، وكان يتناوب غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعي ملكيتها وهي:

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(32، 33).

قبائل الجهمة من مصر، وقبائل التبو من شمال السودان، وقبائل زوية من برقة وبذلك فقد كونت خطراً على السابلة وقوافل التجارة إلى أن أنشئت بها زاوية السنوسية؛ فأصبحت دار أمن وسلام ومشرق الهداية والعرفان، وفي وصفها قال العلامة محمد عبد الله السني من قصيدة عصماء امتدح بها محمد المهدي السنوسي:

طابت وطاب بها المأوى لذي شجن دار السلامة وللإسلام مهتجر
تأوي الوفود لها من كل ناحية مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

وكان أول شيخ لها هو عمر أبو حواء الفضيل، ومن بين من تولى مشيختها: عبد الهادي الفضيل ثم محمد عمر الفضيل.

11 - زاوية قننطة (برقة) وكان أول شيخ لها هو المختار ابن عمور وبقيت مشيختها في

عقبه.

12 - زاوية شحات (برقة) أنشئت عام 1261 هـ وكان أول شيخ لها هو العلامة مصطفى

الدردفي، ومن بين من تولى مشيختها: محمد الدردي، رافع بدر فركاش، مصطفى محمد الدردي.

13 - زاوية العرقوب (برقة) وكان أول شيخ لها هو محمد الجبالي.

14 - زاوية مسوس (برقة) وكان أول من تولاهها بالوكالة الشيخ فهد العاقوري، وكان أول

شيخ لها هو أحمد علي أبو سيف، وفي سنة 1271 هـ تولى مشيختها العلامة عمر الأشهب إلى سنة 1297 هـ حيث توفاه الله فتولى مشيختها ابنه السيد السنوسي الأشهب، وبعد وفاته سنة 1332 هـ تولى مشيختها ابنه محمد يحيى، وفي سنة 1367 هـ تولى مشيختها محمد عثمان أبو عريقب.

15 - زاوية الطيلمون (برقة) كان أول شيخ لها هو مصطفى المحجوب ثم العلامة علي

المحجوب، فالسيد أحمد محمد المحجوب.

16 - زاوية القصور (برقة) كان أول شيخ لها هو العلامة محمد المبخوت التواتي، ثم

محمد مقرب حدوث، فالشهيد الكبير عمر المختار.

17 - زاوية المرج (برقة) كان أول شيخ لها هو أحمد بن سعد، فالسيد علي العادي،

فالعلامة محمد السكوري، فالعلامة محمد بن عبد الله التواتي، فعمران السكوري، فابنه أحمد.

18 - زاوية بنغازي (برقة) وكان أول من تولى مشيختها هو العلامة عبد الله التواتي،

فالعلامة عبد الرحيم بن أحمد المحجوب، وكان من تولى مشيختها السادة: محمد أبو القاسم العيساوي، فالسيد صالح العوامي، فالعلامة أحمد أبو القاسم العيساوي.

19 - زاوية مرزق (فزان) كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

- 20 - زاوية واو (فزان) وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي، ومن بين من تولى مشيختها بالوكالة العلامة محمد بن الشفيح ثم أسندت مشيختها إلى محمد علي بن عمر الأشهب، فابنه نجم الدين.
- 21 - زاوية زويلة (فزان) كانت تحت إشراف العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.
- 22 - زاوية هون (واحة الجفرة) كان أول من تولى مشيختها أحمد بن علي بن عبيد.
- 23 - زاوية مزدة (طرابلس) كان أول شيخ لها هو العلامة عبد الله السني، وقد بقيت مشيختها في عقبه.
- 24 - زاوية طبقة (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الأزهري وبقيت مشيختها في عقبه.
- 25 - زاوية العزات (برقة) أنشئت سنة 1270 هـ وكان من بين من تولى مشيختها عمر جالو.
- 26 - زاوية المخيلي (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة الحسين الحلافي وتعاقب ورثته على مشيختها.
- 27 - زاوية تازربو (واحات الكفرة) وكان من بين من تولى مشيختها العلامة محمد المدني.
- 28 - زاوية ريانة (واحات الكفرة) وكان أول شيخ لها هو حسين بازامه وبقيت مشيختها في عقبه.
- 29 - زاوية دريانة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة إبراهيم الغماري فابنه السيد حسن، فالسيد محمد الحسن الغماري.
- 30 - زاوية سيوة (مصر) كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.
- 31 - زاوية الزيتون (سيوه) تابعة لمشيخة أحمد أبو القاسم التواتي.
- 32 - سوكنة (واحات الخضرة).
- 33 - زاوية الرجبان (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو العلامة أبو القاسم العيساوي وبقيت مشيختها في عقبه.
- 34 - زاوية الواحات البحرية (مصر) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد السكوري.
- 35 - زاوية الداخلة (مصر) وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الموهوب الدرسي.
- 36 - زاوية حوش عيسى (مصر).
- 37 - زاوية الفيوم (مصر).

- 38 - تونين غدامس (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو الشريف الغدامسي .
- 39 - زاوية طلميثة (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها محمد الكليلي .
- 40 - زاوية توكره (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها، عبد الله الجيلاني، عبد الله عمر الفضيل، يونس الموهوب .
- 41 - زاوية أم ركبة (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها، علي بن عبد الله .
- 42 - زاوية الفايديّة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة إسماعيل الفزاني وبقيت مشيختها في عقبه .
- 43 - زاوية ترت (برقة) وكان أول شيخ لها هو عبد القادر الغزالي وبقيت مشيختها في عقبه .
- 44 - زاوية أم الرحم (مصر) .
- 45 - زاوية النجيلة (مصر) .
- 46 - زاوية الحقنة (مصر) .
- 47 - زاوية دفنه (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الغرياني وبقيت مشيختها في عقبه .
- 48 - زاوية أم الرزم (برقة) كان أول شيخ لها هو المرتضى فركاش فابنه المرتضى الثاني، فالأمين فركاش، فمحمد الأمين فركاش .
- 49 - زاوية مصراته (طرابلس) وكان أول شيخ لها خليفة شنيش .
- 50 - زاوية زليتن (طرابلس) .
- 51 - زاوية زلة (طرابلس) .
- 52 - زاوية الجريد (تونس) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن الصادق⁽¹⁾ .
- هذه بعض المراكز الإصلاحية التي تمكنت من ذكرها والتي أنشئت في زمن ابن السنوسي، ولا أزعم أنني استطعت حصرها كلها، وهذا يدلنا على انتشار الحركة وتوسعها وإقبال الناس عليها، وقوة نظامها، وحسن إدارتها .
- إن القدرة التنظيمية عند ابن السنوسي تظهر للباحث في ركيزتها الأولى ألا وهي نظام الزوايا، حيث طور الزوايا المتعارف عليه في الشمال الإفريقي .

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(33 إلى 38) .

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء، فلا بد إذاً من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وإخوانه في بوتقة الطاعة والنظام.

ويلاحظ الباحث أن جل الزوايا تركز في الصحارى، وهذا يرجع إلى اهتمام ابن السنوسي بالبوادي، لأنه أراد أن يعمل بحرية بعيداً عن متناول يد السلطة، فأوغل في الأماكن، ولأنه رأى في أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره الإصلاحية ووجد فيهم نفوساً متهيئة لحمل الدعوة، كما كانوا أكثر استجابة واندفاعاً من غيرهم لحمل تعاليم الحركة، لذلك وقع اختيار ابن السنوسي على برقة كمركز لنشاطه حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية تحمست للدعوة الإسلامية، وكانت مؤسسات الحركة تناسب البادية واحتياجات أهلها، فأوجد الزوايا السنوسية ونظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية والقضائية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، ولذلك نجحت الحركة في البوادي، ولم تنتشر الدعوة في المدن، فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة، فعندهم المؤسسات الحكومية التي تؤدي لهم الخدمات التعليمية والقضائية والاقتصادية، والسياسية، ولذلك نلاحظ أن الزوايا التي أسست في المدن لم تكن تقوم بوظائفها، كما تقوم بها زوايا البادية، كما أنه كان دورها كحلقة وصل بين الحركة في البادية والحضر، كزوايا بنغازي، ودرنة، وطرابلس⁽¹⁾.

إن الاهتمام بدعوة القبائل مهم جداً، وحصر الدعوة في المدن وطبقات معينة من المجتمع يتنافى مع أصول دعوة الإسلام الخالدة، ولذلك لا بد من الاهتمام بالبدو والأرياف وكل طبقات المجتمع لتوصيلها دعوة الله تعالى.

«.. كثيراً ما حصرت الدعوة الإسلامية الحديثة في المدن حتى أن بعض العاملين في الحقل الإسلامي لا يعرفون شيئاً عن قرى مدينتهم ولا عن ريفها ولا عن القبائل البدوية الموجودة حولها إن كانت وهذا إخلال بواجب شرعي..»⁽²⁾.

«إن التخطيط للعمل الإسلامي للريف والقبائل البدوية مهم جداً وأعظم شيء نخدم به في هذا المجال هو العثور على ناس من أهل القرى ومن البدو يدرسون الدراسة الشرعية الإسلامية ليرجعوا إلى أهلهم دعاة، وإنه لأجر كبير أن يتولى بعض أغنياء المسلمين الإنفاق على أمثال هؤلاء، فهذا النوع من التخطيط يحقق قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفِرُوا كَأَنَّهِنَّ فَلَوْلَا

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(264).

(2) انظر: جند الله تخطيطاً، ص(135).

فَكَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَسْتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١﴾ [التوبة: 122].

«ومن التخطيط الذي ينبغي أن يسعى إليه أن توجد العلاقات والصدقات بين أهل المدينة وأهل الريف بحيث تكون زيارات متبادلة ينزل فيها عند أخيه الحضري وينزل الحضري فيها عند أخيه الريفي، والأصل في هذا الحديث الشريف: «زاهر باديتنا ونحن حاضرته»⁽²⁾.

إن زاهراً الأشجعي صحابي جليل كان رسول الله ﷺ يحبه ويمازحه وهو من أهل البادية، وعندما يأتي للمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ينزل عنده.

لقد تحدث الدعوة عن ضرورة الاهتمام بالأرياف والقبائل، والمقصود من الحديث أن أهل البادية أصحاب فطرة سليمة، ومحبة للدين عظيمة، ويحتاجون للإرشاد والتوجيه، والتعليم، والتربية، ثم ينتظر منهم بعد ذلك خير عظيم في مجالات عديدة، وهذا ما حدث مع ابن السنوسي عندما اهتم بالقبائل والبوادي.



(1) انظر: جند الله تخطيطاً، ص(135).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(135).

المبحث الثاني

المنهج التربوي

انتهج ابن السنوسي منهجاً تربوياً استمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه. وفي كتابه «السلسيل» نلاحظ أنه كانت لديه ملاحظات على عدد من الطرق، وحدد معالم الطريقة التي تتقيد بالكتاب والسنة، إن ابن السنوسي كان يؤمن بالصوفية الموافقة للكتاب والسنة، والصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة، وقد قال في ذلك: «فاعلم أن سبيل القوم اتباع النبي ﷺ في الجليل والحقير وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة»⁽¹⁾. وقد فصل ﷺ في تدرج المرید في مراتب السلوك، قال بعون الله وتوفيقه:

الخطوة الأولى:

«يتعين على المرید أن يصحح عقيدته بميزان اعتدال أهل السنة والجماعة كثر الله سوادهم وأدام إمدادهم»⁽²⁾.

ولقد بينت مجملها عندما تحدثت عن رسالة أبي زيد القيرواني كجزء من المنهج الذي كان يتعلمه أتباع الحركة السنوسية.

إن منهج أهل السنة والجماعة يبين المفهوم الصحيح لتوحيد الله ﷻ لأنه اعتمد على كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وقد تتبع علماء أهل السنة والجماعة نصوص الكتاب والسنة وخرجوا بالنتيجة التالية ألا وهي: أن توحيد الله سبحانه وتعالى يعني إفراد الله سبحانه وتعالى في توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وقد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهي:

1 - توحيد الربوبية:

ومعناه إفراد الله بالخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف ولا يشاركه فيها أحد من خلقه، وهذا مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد، حتى المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بذلك ولا ينكرون ولا يجعلون أحداً من آلهتهم شريكاً لله في ربوبيته.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لِنُقُونَ﴾ [يونس: 31].

(1) انظر: الحركة السنوسية.

(2) انظر: السلسيل المعين في الطرائق الأربعين، ص(8).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: 84 - 89].

ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد الله بالربوبية ويجعل لغير الله ﷻ شيئاً من الشراكة معه في الخلق والرزق أو التدبير لم يهمل القرآن الكريم الاحتياج له بل قرره أبداع التقرير (1) في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

2 - توحيد الألوهية:

هو أفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده (2).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰوٰتِ﴾

[النحل: 36].

وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» (3). ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (4).

3 - توحيد الأسماء والصفات:

هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، أنه الحي القيوم الذين لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. . إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى (5)، والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة أن يصفوا الله بما «وصف الله به نفسه وسماه على لسان رسول الله ﷺ

(1) انظر: مظاهر الانحرافات العقديّة عند الصوفية، إدريس محمد (195/1).

(2) المصدر السابق نفسه (199/1).

(3) انظر: صحيح مسلم مع النووي (212/1).

(4) انظر: مظاهر الانحرافات العقديّة عند الصوفية (201/1).

(5) انظر: مظاهر الانحرافات العقديّة عند الصوفية (204/1).

سُميَناه ما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف»⁽¹⁾.

أما طريق الراسخين في العلم في هذا الباب: «والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه التاركون لما ترك من ذكرها، لا ينكرون صفة ما سمى منها جحداً ولا يتكلفون وصفه بما لم يسمع تعمقاً، ولأن الحق ما ترك وتسميته ما سمى ﴿وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّوْهُ مَا قَوْلًا وَتُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]⁽²⁾.

الخطوة الثانية:

«أن لا يقدم المرید على فعل شيء حتى يعلم حكم الله فيه، فيتعلم ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة»⁽³⁾.

ولهذا كان أتباع الحركة السنوسية يتدارسون رسالة أبي زيد القيرواني في العقائد وفي الفقه المالكي، وأضاف ابن السنوسي بعض الكتب المهمة في هذا الكتاب، كصحیح البخاري، والموطأ وبلوغ المرام.

1 - صحیح البخاري:

إن الإمام البخاري - رحمته الله - واحد من أعظم علماء هذه الأمة، الذين رفع الله لهم ذكراً، وأجرى السنة الخلق بالثناء عليهم والدعاء لهم.

سبق الجميع في العناية بحديث رسول الله ﷺ، ووقف عمره عليه، فأصبح أمير المؤمنين في الحديث، وترك للمسلمين من بعده أصح كتاب بعد القرآن الكريم، كان آية في الحفظ، وغاية في الشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة⁽⁴⁾.

- مكانة الجامع الصحيح بين كتب السنة الستة:

اتفق علماء هذه الأمة على أن جامع البخاري أجل وأعظم من جميع كتب السنة. قال العلامة القسطلاني: «أما فضله: فهو أصح الكتب المؤلفة في هذا الشأن، والمتلقى بالقبول من العلماء في كل أوان. فقد فاق أمثاله في جميع الفنون والأقسام، وخص بمزايا من

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (44/5).

(2) المصدر السابق نفسه (46/5).

(3) انظر: السلسيل المعين في الطرائق الأربعين، ص8.

(4) انظر: الإمام البخاري، د. تقي الدين الندوي، صفحة الناشر.

بين دواوين الإسلام، شهد له بالبراعة والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام، ففوائده أكثر من أن تحصى وأعزز من أن تستقصى»⁽¹⁾.

وقال البخاري: «ما وضعت في الصحيح حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين، وأرجو أن يبارك الله تعالى في هذه المصنفات»⁽²⁾.

وقال ابن تيمية: «ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن»⁽³⁾.

إن كتاب الصحيح للبخاري جمع بين الفقه والحديث وعلوم متعددة. إن وضعه في المنهج التربوي عند ابن السنوسي يدل على حرصه على اتباع النبي ﷺ.

2 - موطأ الإمام مالك:

إن حب ابن السنوسي للإمام مالك بن أنس وكتابه الموطأ يظهر للباحث جلياً في المقدمة التي كتبها لطلابه، والتي تدلنا على قدرة ابن السنوسي في تعليم وتفهم تلاميذه، فيقدم لهم المادة الغزيرة بأسلوب سلس بسيط مليء بالعلوم التاريخية والفقهية، والحديثية، والتربوية.

ولقد تحدث عن مدح العلماء للموطأ فقال: فاعلم أن كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة المجمع على جلالته من أجل المصنفات، وأنفس المؤلفات⁽⁴⁾.

وعن محمد بن حرب المدني «... ثم إن مالكاً عزم على تصنيف الموطأ فصنفه، فعمل من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقبل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: اتنوني بما عملوا، فأتي بذلك فنظر فيه، ثم نبذه فقال: لتعلمن أن لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله. قال: فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بَعْدُ ذَكَرٌ يذكر...»⁽⁵⁾.

وذكر سبب وضعه فقال: فقد روى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه، فكلمه مالك في ذلك، فقال: ضعه فما أجد اليوم أعلم منك، فوضع الموطأ فما فرغ منه حتى مات أبو جعفر.

وفي رواية أن المنصور قال له: ضع هذا العلم ودون فيه كتاباً، وتجنب فيه شذائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة

(1) انظر: الإمام البخاري، ص 88.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 89.

(4) انظر: مقدمة الإمام مالك لابن السنوسي، ص 13.

(5) انظر: المصدر السابق نفسه، ص 16.

والأئمة⁽¹⁾، وقد ذكر ابن السنوسي ما رأى في الموطأ من البشائر فقال: عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: سمعت أبي يقول: كنت جالساً مع مالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ، إذ أتاه رجل، فقال: أيكم مالك؟ فقالوا: هذا، فسلم عليه واعتقه وضمه إلى صدره، وقال: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ البارحة جالساً في هذا الوضع، فقال: اتنوني بمالك فأتى بك ترتعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد الله، وكنك، وقال: اجلس، فجلست، قال: افتح حجرك، ففتحه فملاه مسكاً منثوراً وقال: ضمه إليك وبثه في أمتي، قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر ولا تغر، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله تعالى⁽²⁾.

إن في الروايات السابقة معاني تربوية عميقة كان أتباع الحركة السنوسية يتربون عليها منها:

1 - إخلاص الأعمال لوجه الله، وأن دوامها وقبولها من شروطه هذا الركن الأصيل، وأن العلماء المخلصين، يتكفل الله حفظ علمهم ونشره بين الناس.

2 - إن منهج الاعتدال، والحكمة، والاستقامة المتمثل في الوسطية التي سار عليها الإمام مالك، كانت منهجية أصيلة في حياة ابن السنوسي وإخوانه.

3 - إن ابن السنوسي كان يرى أن الرؤى الطيبة لعباده الصالحين تسر ولا تغر، وأحب أن يفرس هذا الفهم في أذهان تلاميذه، ولذلك ساق لهم رؤيا ذلك الرجل للإمام مالك.

وقد أفرد ابن السنوسي في مقدمته للموطأ باباً في التعريف بمؤلف الموطأ الإمام مالك وثناء الناس عليه، ونقل قول النووي: «قد اجتمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والثبات، وحديث رسول الله ﷺ، فقد جمع بين شرفي الحديث والفقه، فهو إمام الأئمة وشيخهم، قد روى عنه سائر الأئمة خصوصاً الأربعة، أما أبو حنيفة فبلا واسطة، فقد حكى غير واحد أنه لقي مالكا وأخذ عنه... وأما الشافعي فأمره مشهور معه، حتى قال ابن الأثير: كفى مالكا شرفاً أن الشافعي تلميذه، وكفى الشافعي شرفاً أن مالكا شيخه.

وأما الإمام أحمد فقد أخذ عن الشافعي، فهو شيخه بواسطة، ومناقب هذا الإمام وفضائله ﷺ تخرج عن أن تحصى، ولا يمكن فيها الحصر ولا الاستقصاء⁽³⁾.

وذكر ابن السنوسي المناقب التي اجتمعت لمالك ولم تجتمع لغيره وأسند هذا القول للذهبي فقال:

(1) انظر: مقدمة الإمام مالك، ص17.

(2) المصدر السابق نفسه، ص20.

(3) انظر: المصدر السابق، ص28.

- 1 - طول العمر وعلو الرواية .
- 2 - الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم .
- 3 - اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية .
- 4 - إجماعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن .
- 5 - تقدمه في الفقه والفتوى، وصحة قواعده⁽¹⁾ .

وذكر ابن السنوسي كلاماً يكتب بماء الذهب أسنده إلى مالك، ليتربى عليه إخوانه وتلاميذه منه :

قول مالك : لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم : لا يؤخذ من سفيه، ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم في حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به⁽²⁾ .

وقال مالك : قلما كان رجل صادق، ولا يكذب في حديثه، إلا مُتّع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة، ولا خرف⁽³⁾ .

ومن قوله : القول بالباطل بُعدٌ عن الحق، ولا خير في شيء وإن كثر من الدنيا يفسد دين المرء ومروءته⁽⁴⁾ .

لقد كان كتاب الموطأ حافلاً بالحديث والآثار، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه العلمي التربوي لأتباعه .

3 - بلوغ المرام :

وهو كتاب جامع للأحكام، ألفه العلامة أحمد بن علي بن محمد أبو الفضل الكناني الشافعي المعروف بابن حجر العسقلاني، وقد نال كتاب بلوغ المرام رضا العلماء، فهو كتاب مفيد مع صغر حجمه حوى ما يغني عن التطويل، وأقبل عليه العلماء قديماً وحديثاً فلا تجد حلقة عالم إلا وكتاب بلوغ المرام على رأس القائمة، وأقبل عليه الطلاب بالحفظ والتداول واستغنوا به عن غيره من أمثاله فصار له القبول وعليه إقبال حتى استفاد منه في كل عصر الجم

(1) انظر : مقدمة الموطأ لابن السنوسي، ص30.

(2) المصدر السابق نفسه، ص29.

(3) انظر : المصدر السابق، ص30.

(4) المصدر السابق نفسه، ص30.

الغفير، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه التربوي التعليمي، ويتعلم الطالب من هذا الكتاب:

- بين مؤلفه مرتبة الحديث من الصحة والحسن والضعيف بما يغني الطالب عن الرجوع إلى غيره.

- اقتصر من الحديث على الشاهد من الباب بما لا يخل بالمعنى المقصود، فخلص من هذا الإيجاز والفائدة.

- انتقى أحاديث الكتاب من دواوينه المشهورة وأمهاته المعتمدة التي أشهرها مسند أحمد والصحيحين والسنن الأربع.

- يصدر الباب - غالباً - بما في الصحيحين أو أحدهما ثم يتبعها بما في السنن أو غيرها لتكون الأحاديث الصحيحة هي العمدة في الباب والمرجع في المسائل والباقي مكملات ومتممات.

- رتب المؤلف كتبه وأبوابه وأحاديثه على كتب الفقه ليسهل على الطالب مراجعته.

- جعل في آخره نخبة طيبة من أحاديث جامعة في الآداب ليستفيد منه الطالب في الأحكام والسلوك⁽¹⁾.

هذه بعض الكتب القيمة التي جعلها ابن السنوسي في منهجه العلمي التربوي.

الخطوة الثالثة:

«ثم يتوجه إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب وتنقية السر»:

إن دعوة ابن السنوسي إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق من صميم القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك، وبعد الآيات التي نهت عن إشاعة الفاحشة في الدين آمنوا، وبعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وجاءت قبل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22].

(1) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله البسام، ص 22، 23.

وذلك يؤكد ما يلي:

1 - أن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل معها التزكية لولا فضل الله، وهذا يقتضي شيئين: بذل جهد في التزكية، وسؤال الله إياها والاعتماد عليه فيها، وفي الحديث: «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكها أنت وليها ومولاها»⁽¹⁾.

2 - أن من تزكية النفس: العفو والصفح عمن أساء إلينا؛ لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثانة الذي كان ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، والذي خاض في الإفك، فمنع عنه أبو بكر رفته، فجاءت الآية واعظة، وفاء أبو بكر إلى سيرته، وما أرقاه من مقام!! وما أعلى ما يراد بكلمة التزكية!!.

3 - إن من تزكية النفس عدم اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وإذن فالتزكية تعني: تجنب الفحشاء والمنكر، وتجنب خطوات الشيطان، وأولى خطوات الحسد والكبر، فقد حسد آدم وتكبر عن السجود له.

4 - عدم محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وعدم السير في طريق ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر.

5 - إمساك اللسان عن الأعراس، وترك المشاركة في كل ما يؤذيها إلا إذا توفرت شروط شهادة وتعيّنت⁽²⁾.

هذه القضايا الخمس لها صلة بالتزكية، فالتزكية باب واسع، وقد تحدث ابن السنوسي عن النفس البشرية وأنواعها وأمراضها وكيفية علاجها حديث العالم الخبير في تحقيقها فمن حديثه عن:

- النفس الأمانة قال:

وهي صاحبة الجهل والبخل والحرص والكبر والغضب والشهوة والشهوة والحسد وسوء الخلق والخوض فيما لا يعني من الكلام وغيره، والاستهزاء والبغض والإيذاء باليد واللسان وغير ذلك من القبائح... فكن أيها الأخ منها على حذر ولا تنتصر لها إن أحد آذاها بل كن معيناً له عليها وتخلص من هذه الآفات... بالذكر الكثير القوي وتقليل الطعام والمنام، وحساب النفس كل ساعة، وخوفها بالموت، وعذاب القبر وما بعده من الأهوال، إلا إذا أوصل الخوف

(1) رواه مسلم.

(2) انظر: المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص 154.

إلى درجة القنوط فيجب عليك حينئذ تذكر أسباب الرجاء وسعة رحمة الله تعالى، وعلبك بالتذلل، والخضوع، والتضرع له تعالى، واطلب الخلاص بلطفه وإحسانه من الأوصاف الذميمة والتحلي بالصفات الحميدة كالصدق والتواضع، والمحبة، والإخلاص، والخمول، ونحو ذلك لأنك إذا اشتغلت في خلاص نفسك من الآفات وتبدلت بالأوصاف الحميدة شاهدت بعض العجائب المكنونة والأسرار المخزونة في صدفة البشرية، وأقبل على من لا غنى لك عنه بمعاملات الإحسان قبل أن تساق إليه بسلاسل الامتحان، وقد قال لك: من تقرب إليّ بشير تقربت منه ذراعاً. . الحديث، فاترك التواني وأعرض عما يشغلك عن مولاك واستغن بالقناعة بما في يدك، ودع اللذات الفانية لأهلها، ولا تسوف التوبة والإقبال على الله تعالى، فإنك لا تدري ما بقي من عمرك. . وقد نقل السنوسي الإجماع على أن التوبة واجبة على الفور، ولزم من تأخيرها تضاعف الذنوب على من لم يتب وليس هذا التضاعف، كتضاعف الحسنات، بل إذا لم يتب صار عليه ذنب الفعل وذنب ترك التوبة وهذان الذنبان تجب التوبة منهما أيضاً، وإذا لم يتب منهما على الفور صاراً أربعة وعلى هذا القياس، وإذا نظرت بعين الإنصاف والشفقة على نفسك رأيت احتياجك إلى التوبة أشد من احتياجك إلى المأكل والمشرب والمسكن لأنها قد حجبتك عن مطالعة الغيوب وحالت بينك وبين كل محبوب، وعلامة خلاص النفس من الآفات المارة أن يكون الخلق كلهم عنده على السوية، لا يحبهم محبة طبيعية تميله إليهم في منكر، ولا يكرههم كراهة تغير باطنه عليهم في معروف، ويستوي عنده جميع المأكول، وجميع الملابس، فمن رأى في نفسه شهوة لبعض دون بعض، وجب عليه المجاهدة، إلى أن يستوي ذلك عنده وإلا كان حيواناً في صورة إنسان بل الحيوان خير منه؛ لأنه ليس عليه تكليف ولا حساب ولا عقاب⁽¹⁾ وما قاله ابن السنوسي آنفاً تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: 53].

- النفس اللوامة:

وقد تحدث ابن السنوسي عنها فقال: وهي التي لها رغبة في المجاهدة وموافقة الشرع ولها أعمال صالحة من قيام، وصيام، وصدقة، وغير ذلك من أفعال البر يدخل عليها العجب والكبر وكذا الرياء الخفي؛ بأن يحب صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه من الأعمال الصالحة، كالإخلاص وغيره ويحمده عليها مع أنه يخفيها عنهم ويعمل لله، ويكره هذه الخاصة لكن لا يمكنه قلعها بالكلية، والخلاص من ذلك الرياء يكون بالفناء عن شهود الإخلاص بشهود أن المحرك والمسكن هو الله تعالى شهود ذوق، ويشهد أن المنة لله تعالى عليه حيث فتح له أبواب العبادات، ومكنه من الدخول إلى حضرته وأهله للقبول في خدمته، والخلاص من

(1) انظر: المسائل العشر لابن السنوسي، ص 280، 281.

الأولين، يكون بالمجاهدة، وهي ترك العادات، ومعظمها يكون بستة أشياء: تقليل المنام وتقليل الكلام، والاعتزال عن الأنام، والذكر المدام، والفكر التام، فمن فعلها بصدق نقلته إلى الباقي والمطلوب من هذه الأشياء الاعتدال، ولذا لم يقولوا ترك الطعام بل لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لم يشبع... فعالج نفسك بالشريعة وخلصها من أمراضها وأعظمها الكبر والعج اللذان هما أصل الغضب الذي ينشأ عنه الحقد الذي يتفرع عنه الحسد ولا يزول الكبر والعجب إلا إذا انقطع المدد عنهما وهو امتلاء البطن، وللحسد أسباب أخر، كحب الرياسة، وخبث النفس وكثيراً ما تكون هذه الأسباب بين أهل الطريق المتصوفين فيتمنى زوال ما على أخيه من المشيخة أو الخلافة وما هو عليه من الاستقامة والتوجه إلى الله تعالى، إذا عرفت ذلك فعليك بمعرفة أربعة أشياء، والتأمل فيها. الأول: أنه تعالى لا يعجزه شيء. الثاني: إحاطة علمه بكل شيء، الثالث: أنه تعالى أرحم الراحمين، الرابع: أن جميع أفعاله خير، فإن تحقق الأول يزيد همتك بالتوجه إليه والطلب منه مع اليقين بالإجابة والطلب على هذا المنوال لا يرد أصلاً، وتحققك بالثاني والأخير يحقق لك مقام التوكل والرضى والشوق والمحبة وغير ذلك وتحققك بالثالث يدفع عنك خوف الإنس والجن⁽¹⁾، وهذا شرح لقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَاْمَةَ﴾ [سورة القيامة، الآية: 2].

وقال ابن السنوسي عن النفس المطمئنة:

- النفس المطمئنة:

وهي التي لا تفارق الأمر التكليفي شبراً ولا تتلذذ إلا بأخلاق المصطفى ﷺ ولا تطمئن إلا باتباع أقواله وتتلذذ بصاحبها أعين الناظرين وأسماع السامعين وعلم معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26]، فيجب عليه الاجتماع مع الخلق في بعض الأوقات ليفيض عليهم بما أنعم الله به عليه من علم الصدور، لا علم السطور، وليكن في بقية الأوقات مع الله ليرقى إلى المقامات الباقية وليكثر من الذكر ولا يلتفت إلى ما يظهر من أنوار أو كمالات أو كرامات لأن حضرة القرب لا يدخلها إلا العبيد الخالص، وكل ما سوى الله قاطع عن المقصود، فهو فتنة فلا تقف عنده وإن إلى ربك المنتهى، ومن وصل إلى حضرة القرب صارت الكرامات طوع يده ومن تعرض لكرامة أولاً فقد طلب الشيء قبل أوانه، فيعاقب بحرمانه فيكون مشتغلاً بما لا يعني، والإنسان مدة حياته متعرض للمحن فينبغي التحرز من الآفات إلى الممات، وإياك وحب الرياسة والشهرة والتعرض للمشيخة والإرشاد⁽²⁾، وتحدث ابن السنوسي عن النفس الكاملة فقال:

(1) انظر: المسائل العشر، ص 285.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 290.

- النفس الكاملة: وهي التي لا يفتر صاحبها عن العبادة إما بجميع البدن أو باللسان، أو بالقلب، أو بعضو من الأعضاء وصاحبها كثير الاستغفار، كثير التواضع، سروره ورضاه في توجه الخلق إلى الحق، وحزنه في ضد ذلك، وهو كثير الأوجاع قليل القوى قليل الحركة ليس في قلبه كراهة لمخلوق من المخلوقات مع أنه يأمر وينهى ولا تأخذه في الله لومة لائم ويظهر الكراهة لمستحقيها والمحبة لمستحقها، فيضع كل شيء في محله، متى ما وجه همته إلى كون من الأكوان أوجده الله تعالى على وفق مراده وذلك لأن مراده في مراد الحق سبحانه وتعالى (1).

لقد كان ابن السنوسي مريباً من الطراز الأول وكان عليمياً بأمراض النفوس، وخبيراً بعلاجها، ولقد نجح في تربية أصحابه على الأخلاق الرفيعة، وحقق نجاحاً باهراً، ورسم لأتباعه طريقة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقد تحدث ابن السنوسي عن الأسباب التي تعين العبد على تصفية نفسه وتركيتها فقال:

الخطوة الرابعة:

ومن أسباب حصولها: طيب المطعم فإن من أكل حراماً فعَلَهُ (2) في ظاهره أو باطنه لا محالة، ومن أسبابه سماع أحاديث الترغيب والترهيب، وحكايات الشيوخ في مجاهداتهم وشريف معاملاتهم، فإنها جند من جنود الله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [مرد: 120] وليشتغل المرید بالأعمال المسرعة به إلى حضرة الفلاح والفوز بالكمال، كالصلاة على النبي ﷺ، فقد قال بعضهم إنها لا يدخلها الرياء، وبعضهم إنها مقبولة مطلقاً وهي على هذا من الغنائم الباردة المبذولة لسالكي طريق المجاهدة في الله... (3).

1 - طيب الطعام والابتعاد عن الحرام:

إن ابن السنوسي يبين لأتباعه أن من أسباب تزكية النفوس، والتخلق بالأخلاق الرفيعة، وتصفية القلوب، أن يحرصوا على طيب الطعام، وأن يتعدوا عن الحرام. إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ، ناطقة بربط قبول سائر العبادات من دعاء وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك من صالح الأعمال بتحري الحلال من الكسب:

(1) المصدر السابق نفسه، ص 291.

(2) غير واضحة من الأصل ولعل معنى الكلمة أثر في ظاهره وباطنه.

(3) انظر: السلسيل العين: ص 9.

- الدعاء:

ففي الدعاء، وهو مخ العباد، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وعباد الله الذين استجابوا له، هم من يفعلون الحلال ويتركون الحرام، فيكونون أهلاً للإجابة قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

وإجابة الدعاء منوطة بأكل الحلال، وترك الحرام، وتوقفي الشبهات. أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأني يستجاب لذلك؟»⁽¹⁾ ولا شك أن قبول الدعاء من الوسائل المهمة في تزكية نفس العبد، وتهذيب أخلاقه، وحياة قلبه.

- الصدقة:

والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، والحرام سواء أكان مالا أم متاعاً أم غير ذلك، غير طيب، لأنه خبيث، ومن مصدر خبيث غير مشروع، فهو بالتالي غير مقبول.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 267].

وكذلك الشأن في سائر العبادات، فكيف يقبل الله تعالى الصلاة ممن تغذى بالحرام، وكانت أنفاسه التي يتاجي بها ربه، تمتد طاقتها من الحرام، وكل جسم غذي بالحرام فالنار أولى به⁽²⁾.

إن من وسائل تزكية النفوس العبادات عندما يتقبلها الله، ويجعل لها آثارها في نفس العبد وقلبه، وعقله، وجسده.

2 - سماع أحاديث الترغيب والترهيب:

فإن لها أثراً في تزكية النفوس، وإحياء القلوب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت

(1) انظر: مسلم (703/2) رقم 1015.

(2) انظر: طلب الرزق بين الحلال والحرام، أحمد الطويل، ص147.

رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»⁽¹⁾.

وأما في التهيب، فعن أنس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين⁽²⁾.

إن ابن السنوسي - رحمه الله - يرى أن لأحاديث الترغيب والتهيب أثراً في تزكية النفوس، كما يرى لسير وتراجم الصالحين أثراً في صفاء القلوب، وتطهير النفوس، بل يرى أن تلك السير جند من جنود الله يثبت الله بها من يشاء من عباده.

3 - المسارعة للخيرات:

يرى ابن السنوسي أن من وسائل التزكية: المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، كالصلاة على النبي ﷺ، ويراها من الغنائم الباردة لسالكي طريق المجاهدة في الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، آية 56].

إن صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ معناها الثناء عليه، وإظهار فضله، وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في فضل الصلاة على النبي ﷺ ومنها: عن يعقوب بن زيد بن طلحة التميمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال: ما من عبد يصلي عليك إلا صلى الله عليه بها عشراً» فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت».

قال: ألا أجعل ثلثي دعائي؟ قال: «إن شئت».

قال: ألا أجعل دعائي كله. قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة»⁽³⁾.

قال ابن السنوسي: إذا أكثر السالك من الصلاة على النبي ﷺ أنقذه الله بها من المهالك وأخذ بناصيته إلى أحسن المسالك، ودعا ابن السنوسي تلاميذه إلى دراسة سيرته ﷺ وبيان أحواله، وحياته⁽⁴⁾.

(1) انظر: الدارمي (2/322) حسنه الألباني رقم 127.

(2) انظر: البخاري، كتاب الرقاق (11/319).

(3) انظر: مسلم، أبو داود (1516).

(4) السلسيل المعين، ص 8.

- إن الصلاة على النبي لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة منها:
- امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وموافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ، وموافقة ملائكته فيها.
 - حصول عشر صلوات من الله ﷻ على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي ﷺ.
 - أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها.
 - أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه.
 - أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة.
 - أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلي، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل.
 - إنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله ﷺ، وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به⁽¹⁾.
- هذه بعض الأصول التي توضح منهج ابن السنوسي التربوي، وقد ألزم أتباعه بأوراد الطريقة، فهي عبارة عن تلاوة القرآن الكريم، ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبي ﷺ⁽²⁾، وقراءة بعض الأدعية التي تحمل في طياتها معاني التوسل والتضرع إلى الله وحمده جل جلاله وتسيحه⁽³⁾.
- وكان أتباع الحركة السنوسية يحافظون على أورادهم، ولم تكن معهم موسيقى، ولا حركات راقصة، وكانوا بعيدين عن الأعمال البهلوانية، كأكل الزجاج، وطعن الصدور بالسيوف واللعب مع الأفاعي⁽⁴⁾.
- وكان ابن السنوسي يلقن طريقته للمريدين بقصد تعليمهم الشريعة الغراء ويلح عليهم بالتمسك بأحكامها، ويأخذ عليهم العهد بأن لا يخالفوا في أعمالهم الشرع الحنيف⁽⁵⁾.

(1) انظر: البحر الرائق، أحمد فريد، ص 121.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص 249.

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص 99.

(4) انظر: الحركة السنوسية، ص 251.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 252.

ابن السنوسي ونقده لأخطاء الصوفية:

لقد وقعت كثير من الطرق الصوفية في انحرافات كثيرة، وقد تعرض ابن السنوسي لبعض الطرق ووضح الأخطاء التي وقعت فيها، ففي حديثه عن الطريقة الصديقية يقول: «دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة وذلك من قلة معرفتهم بالأحوال واتباعهم حظوظ النفس، ولكنهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات ويجرعهم المرارات ويدلهم على المناهج الرضية في علاج عيوب النفس وطريق دوائها، فمثلهم كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته فالله هو الولي الحميد»⁽¹⁾.

وانتقد ابن السنوسي بعض دخلاء المتصوفة: «... ومنها ما كثر به تبحر كثير من بعض المنتسكين، من دخلاء المتصوفة، وغلاة المتورعين، من الإعجاب بأعمالهم، والتمدح بأحوالهم، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد، ومواهب الكرامة، لا يباليون بمن عداهم ولو كانوا على محض الاستقامة...»⁽²⁾.

وعمل على تصحيح مفاهيم الإسلام التي انحرفت بعض طرق الصوفية عنها، كالعبادة، والتوكل، والجهاد.

أ - العبادة:

إن من عوامل النهوض التي سار عليها ابن السنوسي تصحيح مفهوم العبادة في أذهان أتباعه، ونجد ذلك في قوله لبعض تلاميذه وإخوانه «لأي شيء نأمركم بقراءة النحو؟ لإصلاح ألسنتكم لكتاب الله وحديث الرسول ﷺ» ثم قال: «بالكم تقولون الذي يقرأ النحو ما نوصله إلى الله. بالكم تقولون الذي يخدم الحجر والطين ما نوصله إلى الله، بالكم تقولون الذي يرعى الإبل ما نوصله إلى الله، وهكذا... وعد أشياء كثيرة»⁽³⁾.

وقد اتضح مفهوم العبادة الشامل عند أتباع الحركة السنوسية، وكان طلاب الزوايا في يوم الخميس من كل أسبوع يخصصونه للشغل بالأيدي، فيتركون الدروس كلها ويشغلون بأنواع المهن من بناء ونجارة، وحدادة، ونساجة، وغير ذلك، لا تجد فيهم إلا عاملاً بيده، وكان محمد المهدي السنوسي الزعيم الثاني للحركة يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام بالحرف والصناعات، ويقول لهم: «يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية، وليس

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص 143.

(2) انظر: المسائل العشر، ص 9.

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص 157.

غيركم بأفضل منكم». وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم: «يظن أهل الوريقات والسييحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا»⁽¹⁾.

إن مفهوم العبادة عند السنوسية وافق تعريف ابن تيمية عندما قال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصوم والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصللة الأرحام، الوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار... وأمثال ذلك من العبادة»⁽²⁾.

ب - التوكل:

كان ابن السنوسي يحب للمسلم أن يعيش من عمل يده وعرق جبينه ليغرس في نفسه حب التعفف، وقد روى كبار الإخوان عن ابن السنوسي أنه كان يقول: «الذهب في الأرض، فغوصوا لاستخراجه بالمحراث» وكان يقول: «الدرر في غرس الشجر أو تحت ورق الشجر» ويقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى، والاستقامة كنز لا يبلى والعفة حسب دائم» «ومن مد يده متسولاً قصر لسانه»⁽³⁾. إن مفهوم التوكل على الله يكون في كل الأمور، وهذه التوجيهات تدلنا على فهم ابن السنوسي لمفهوم التوكل، فدعا إلى مباشرة الأسباب مع تفويض الأمر لله تعالى، وحارب التواكل الذي انتشر في كثير من الطرق الصوفية.

ج - الجهاد:

قامت بعض الحركات الصوفية بصرف الناس عن القتال في سبيل الله وجهاد أعداء الأمة الإسلامية، وعمل ابن السنوسي على تربية أتباعه على الاستعداد للجهاد في سبيل الله، وكان كثيراً ما يدعو للجهاد ويأمر به ضد كل معتد على أرض المسلمين، فقد قام بتنبيه وتحذير الليبيين من غزو الطليان لليبيا، قال مرة للشيخ الكاسح أحد زعماء قبيلة العواقر: «ماذا أعددت يا شيخ الكاسح للنابلتان إذا غزا بلادك ليأخذها؟» فقال له الشيخ الكاسح: أعددت له جراباً من البارود وشيئاً من الرصاص، فقال له ابن السنوسي: إذا كنت وأنت شيخ القبيلة ولم يوجد عندك إلا هذا المقدار القليل فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟ وأخبره ابن السنوسي أن النابلتان آت للبلاد لا محالة وسيصيبكم منهم أذى كبير، وإن الله مع الصابرين، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وكان ابن السنوسي يفهم ذلك لكل من يجالسه من الإخوان ورؤساء الزوايا، وشيوخ القبائل

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص 193.

(2) انظر: الفتاوى (10/150).

(3) انظر: برقة بين الأمس واليوم، ص 187، 188.

والأعيان، وبأمرهم أن يحذروا من ذلك وأن يحتاطوا له، وأن يأمرؤا معلمي الصبيان باللقاء الدروس في هذا الشأن، وكان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويحتفظوا به في مخازن خاصة⁽¹⁾ وذات مرة قال لأحد شيوخ القبائل أن النابولتان سيغزو هذا البلد ويقف أهلها للدفاع عنها موقفاً مشرفاً، وسيخذ جميع الوسائل لإخضاعهم، ومن بين هذه الوسائل سيقدمون الأموال للإغراء فماذا أنتم فاعلون في هذه الحالة؟ فقال الشيخ: أننا سنأخذ المال ونثني عليهم نقاتلهم، فكان جواب ابن السنوسي: من يقبل هديتهم لا يقاتلهم، وقد صح ذلك كله فعلاً⁽²⁾.

وكان يتصيد الفرص لبيان أهمية الاستعداد، وجمع الذخائر، والاحتفاظ بها لوقت الحاجة، فعندما وصل إلى العزيات عام 1269 هـ قادماً من الحجاز، وأخذت وفود القبائل تتوافد على زيارته من جميع أنحاء برقة وطرابلس زرافات ووحداناً، وكان من تقاليد البدو في مثل هذه الحالة أنهم يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم دليلاً على فرحهم وابتهاجهم، وفي ليلة من الليالي كان يتصدر مجلساً من الإخوان وشيوخ الزوايا وزعماء العشائر وذلك بعد صلاة العشاء، فسمع طلقاً متواصلاً من البارود، وسأل عن السبب فقيل له إن (مزاراً) من قبائل العواكير قد وصل الآن، (وكلمة مزار تطلق عند البادية على الزائرين) فقال: لقد نبهنا أكثر من مرة للمحافظة على الرصاص والبارود، والعناية بإدخال الأسلحة كي لا تستعمل إلا عند الحاجة، وإن الوقت الذي ندخره السلاح لآت، ونود من إخواننا وشيوخ العشائر أن يواصلوا إسداء النصح بذلك، فأجابه محمد بن الشفيح بقوله: أنتظر غزواً خارجياً قريباً؟ فالتفت ابن السنوسي عنه إلى الشمال - وكان يستقبل القبلة - وقال وقد تقطب وجهه: أكاد أقول لكم إنني أرى العدو رأي العين، ومن مد الله في عمره منكم سوف يقاتله وهو آت من هنا وأشار إلى جهة البحر، فاصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ثم استشهد بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ...﴾ [الأنفال: 15 - 16].

وأصبح أتباع الحركة السنوسية يستعدون لأعدائهم، الذين أخبر شيخهم بأنهم قادمون، وسنرى بإذن الله معاركهم البطولية ضد فرنسا وبريطانيا وإيطاليا في الجزء الثاني من هذه الدراسة.



(1) برقة بين أمس واليوم، ص 179.

(2) انظر: السنوسي الكبير، ص 144، نابولتان أي إيطاليا.

المبحث الثالث

البعد السياسي عند ابن السنوسي

يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية دولة الخلافة، ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، رغم ما كان يعتقد في الأصل من أن الخلافة تكون بيد قرشي، ومع هذا فإنه لم يشأ أن يثير موضوع الخلافة من هذه الناحية، لأنه يعلم يقيناً أن إثارة هذا الموضوع معناه فتح باب للزراع لا يعود إلا بضرر على السنوسية وعلى المسلمين أجمع، ويبدو أنه اعتبر من الأحداث التي عاصرها في صراع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الدولة العثمانية واقتنع بأن أخف الضررين في هذه المسألة الحية الواقعية عدم معاداة الدولة العثمانية ولذلك نجد ابن السنوسي يعمل على توثيق علاقته بحكام الأقاليم اللبية في طرابلس وفران وبنغازي، وتولدت علاقة وثيقة بين الولاة العثمانيين وابن السنوسي مبنية على الاحترام، والتقدير، فقد جاء في رسالة بعث بها ابن السنوسي لوالي طرابلس محمد أمين باشا بعد تأسيس الزاوية البيضاء: «ثم إننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية، وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهد الورد بأشد وثاق، فهذا محقق لدينا، وواجب المكافأة علينا، ويؤكد دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا، وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلق بمحلنا من خدمة وعمار، وغير ذلك مما لا يقدر على مكافأتكم عليه إلا الله سبحانه، هذا مع بعد المسافة واشتغالكم بمصالح الدولة العلية وقيامكم بأعباء سياسة الرعية، فإن هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم، فأنتم لذلك منا بمرأى ومسمع، ومذكورون مع الحاضرين في كل مجمع... والإخوان المهاجرون دائماً لكم داعون» ثم يتحدث عن عمله وعمل الإخوان في نشر العلم وإقامة شعائر الدين ثم يقول: «ثم ما ذكرتم من توجيه النجل الناجب إلى ولاية بنغازي للقيام بمصالح الدولة السنية فنعم ما فعلتم، ونرجو أن يكون على قدومكم من طرق السداد والرحمة للعباد، فأوصوه بذلك، وادعوا له به فإن رضاء الحق في رضائكم عليه. ونحن والإخوان عليه راضون، وله راعون وبالسيرة الحسنة ماضون. جعله الله وارث كمالكم بعد طول الأعمار، وجمع لكم بين عز هذه الدار وتلك الدار... فنوصيكم وأنفسنا بوصية الله سبحانه للنيين والمرسلين الأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131] وأن تتخلقوا بمحض الرحمة لعباد الله. قال العلي الشان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ مَا تَحْلُونَ﴾ [النحل: 91] وقال ذو الشمالين الحسنة: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». «الراحمون يرحمهم

الرحمن». «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». و«الجزء من جنس العمل»، و«إنما هي أعمالكم ترد عليكم» وكما يدين الفتى يدان، نسأل الله سبحانه لنا ولكم وللمسلمين أن يؤتينا من لدنه رحمة ويهيء لنا من أمرنا رشداً، ويحل علينا رضوانه الأكبر الذي لا سخط بعده أبداً إنه جواد كريم رؤوف رحيم وعلى جنابكم السلام وهو الختام⁽¹⁾.

فالباحث يلمس وذاً قوياً بين ابن السنوسي والوالي، ويستتج منه رضا الوالي وتأيبه لحركة ابن السنوسي، ونجد رسالة أخرى بعث بها ابن السنوسي إلى محمد باشا صالح حاكم بنغازي يعهد فيها للوالي بمهمة رعاية الزوايا وحمايتها وإصدار الأوامر باحترامها وذلك قبل سفر ابن السنوسي للحجاز. وقد جاء في الرسالة: «... فلما حان سفرنا وجب علينا أن نرد الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها، وذلك أن هذه الزاوية التي حدثت بمهمة حضرتكم ومئة جناب والدكم (هنا بياض في الأصل)... وكل من الزوايا حوله عربان وعلم جنابكم محيط بأحوالهم وتعدى بعضهم على بعض فضلاً عن غيرهم... وقد سبق من جنابكم وجناب الأكرام الوالد حمى حرمةا وصيانة حرمةا... وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزير خطابكم لا يستباح لها حصن ولا تحضر لها ذمة وتصير حرماً آمناً...»⁽²⁾.

وهذه الرسالة وجهها ابن السنوسي إلى حاكم إقليم فزان فقال بعد البسملة والديباجة الأولى: (ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان حالاً، أدام الله بقاءه وزاده عزاً وإجلالاً. وبعد إهداء تحيات عطرة تليق بعزير الجناب، ورفع أكف الضراعة مستمطراً وأكف الإنعام وسوايخ الآلاء مدى الدهور والأحقاب، وأنه قد وصل مشرفكم الكريم، وحمدنا الله تعالى على ما أنتم عليه من الفضل الجسيم. وأسفر عن مكارمكم الفاتحة... باستنشاق ربا منكم الرائقة، إنكم للفضل أهل ولعمل الصالحات مأوى ومحل. إذ أن مقاصدكم كلها صالحة. وفضائلكم لدى الخواص والعوام واضحة، وقد أخبرنا ولدنا الشيخ أحمد بن أبي القاسم التوات عن جميع خيراتكم تفصيلاً. وتتابع ذلك منكم بكرة وأصيلاً. زادكم الله عزاً ورفعة وجعلكم تحت كنفه في عز دائم ومنعة. وأفاض عليكم من نوره الأسنى، وأمدكم من فيوضاته المباركة الحسنى، فأبشر بحول الله وقوته بالعز الأبدي والفخر الدائم السرمدي، وقد وجهنا ولدنا الشيخ محمد بن الشفيح يذكر عباد الله في تلك الناحية. ويكون مقامه بزاوية (واو) حتى يرجع إليها الشيخ أحمد بن أبي القاسم التوات لأن مرادنا أن يأتينا من هناك ببعض كتب غير موجودة في خزانتنا ويرجع إن شاء الله عاجلاً. وها نحن داعون لهم بصالح الدعوات في الخلوات

(1) انظر: السنوسي، ص 139، 140.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 143، 144.

والجلوات وأوقات الإجابات وعلى الله القبول وهو المرجو منه والمأمول وسلام السلام يخصصكم ويعم سائر اللائذين بجنابكم⁽¹⁾.

ومن خلال الرسائل نستنتج أن ابن السنوسي استطاع أن يقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين، ويبدو أن الحكومة العثمانية قررت أن تكسب ابن السنوسي لصفها، وخصوصاً بعد أن قدم للقبائل خدمات عظيمة في مجال الدعوة، والتعليم، والإرشاد، وعالج ظاهرة خروج القبائل عن الدولة بحكمة نادرة، فكانت القبائل تقبل نصائح ابن السنوسي ويطيعون العثمانيين بناءً على توجيهاته، ولذلك تركت الدولة الدواخل في يد الحركة السنوسية، وبدأت الحركة تتحول إلى إمارة منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية، وقام ابن السنوسي بإرسال مندوب عن الحركة السنوسية إلى استانبول، وقام بهذه المهمة الشيخ عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازي حيث قابل السلطان عبد المجيد وحصل منه على (فرمان) عام 1856 م يعني ملاك الزوايا من الضرائب ويسمح لها بجبي نقود من أتباعها، ونخرج من ذلك كله بأن علاقة ابن السنوسي بالدولة كانت طيبة وحسنة طول إقامته الأولى في برقة. وقد أشار صادق المؤيد لهذا الفرمان الذي لم نعثر على صورة له. ثم سافر الشيخ أبو القاسم العيساوي من طرابلس إلى استانبول وحصل على (فرمان) آخر من السلطان عبد العزيز يؤكد الفرمان الأول، وأتى به إلى حاكم طرابلس⁽²⁾.

وقد وجد المؤرخ أحمد الدجان في دار المخطوطات في طرابلس (مرسوم ولائي) من والي طرابلس إلى متصرف الجبل يؤكد على ما تحصل عليه أبو القاسم العيساوي من فرمان من استانبول وقد جاء فيه بعد التحية «ويعد فإن الشيخ العالم... السيد الحاج بلقاسم العيساوي دام موقراً مرعياً بيده وأمر من أسلافنا الوزراء العظام تشعر بكونه أتى بفرمان عالي الشأن في تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه لما تحقق من حسن سيرته وخلوص طريقته وسريته وفضله وسلوكه مسلك أستاذه ذي الهداية والإرشاد موصل السالكين لإدراك المراد، صاحب المقام الأنور الباهر، والنسب العالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار، عين أعيان الأخبار محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي... كما تشعر بأنه أسس زاوية باسم أستاذه المشار إليه، قاصداً بذلك نشر العلوم وتعليم أولاد المسلمين وظهور طريقة الأستاذ ليعم النفع والإرشاد، كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين ورفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه والنظر إليه بعين الكمال والوقار والإجلال ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة... وعدم التعدي على الزوار الوافدين عليها... وإجراؤه هو ووالده وإخوته على ما هم عليه وأن لا يقاسوا

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص 141.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص 105.

بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والأعشار الشرعية وأن لا يطالب بميري ولا أعشار. (1).

إن ابن السنوسي استطاع أن يصل إلى أهدافه، وأن يوسع نفوذ دعوته، ويكسب معاضدة الدولة العثمانية له سواءً عن طريق باشواتها في ليبيا أو السلاطين العثمانيين في استانبول، فقد استطاع أن يتحد مع الدولة العثمانية في السعي الدءوب من أجل تحقيق أهداف الإسلام الكبرى، وقد نظر ابن السنوسي إلى دولة الخلافة، كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغييره، بل الصواب العمل على الحفاظ عليه وعدم الاصطدام به، لذلك جعل علاقته بها طيبة. أما الدولة العثمانية فكانت ترى في الحركة بعض الفوائد استطاعت تحقيقها، كما أن الحكام العثمانيين اقتنعوا أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة، وقد سئل ملك ليبيا السابق محمد إدريس السنوسي . رحمه الله . هل كان جده يهدف إلى إقامة دولة إسلامية؟ فأجاب بالنفي وذلك لأن جده ما كان يريد الاصطدام بالدولة العثمانية التي وقفت منه موقفاً طيباً عندما ألقى السلطان عبد المجيد الإخوان من دفع الأموال الأميرية، ولأنه كان يخشى أن يكون حاكماً، لأن الحاكم يظلم أحياناً وهو يعلم وأحياناً دون أن يعلم (2).

إن ابن السنوسي مع قناعته بأحقية القرشي بالخلافة لم ير إثارة موضوع الخلافة، لأنه رأى أن ذلك من غير المناسب وليس من مصلحة المسلمين إثارة مثل هذا الخلاف، ولذلك ركز على جوانب الإصلاح الأخرى، فصار هدفه إيجاد مجتمع مسلم يتألف من أفراد فهموا الإسلام وتربطهم شريعة الله، وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع أن يقوم بواجباته نحو الإسلام، من رد الاعتداء، وإقامة شرع الله، ودعوة الناس إلى الإسلام. . . ولا بد وأن ينتهي الأمر بإصلاح السلطة وحل مسألة الخلافة.

وقد اختار ابن السنوسي طريق التعليم والإرشاد طريقاً لإصلاح المجتمع (3) ولذلك كانت خطواته الحركية والدعوية محسوبة، فلم يصطدم بالدولة، ولا بالعلماء، ولا غيرهم وإنما سعى لتحقيق أهدافه بالوسائل السلمية، وأقام زوايا لتكون بمثابة خلايا حية، تمتد منها الحياة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية (4).

إن ابن السنوسي لم يترك فرصة تمر إلا واتخذها لتعزيز مركز دولة الخلافة والأخذ بيدها، وكان يرى أن طرق الإقناع هي خير الوسائل لبلوغ الأهداف السامية، ولم يستعن ابن السنوسي

(1) انظر: دار المحفوظات طرابلس تاريخ البيورلدي عام 1287 هـ.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص163.

(3) المصدر السابق نفسه، ص164.

(4) المصدر السابق نفسه، ص102.

بأي دولة أجنبية، أو تعاون مع أي منها، أو ارتقى في أحضانها، أو قام بتشجيع الثورات التي لا تأتي بفائدة مرجوة للمسلمين.

إن خطواته الدعوية الحكيمة قد أغضبت بعض الخائفين على ملكهم من الحكام والجامدين من العلماء، والمفكرين من دهاة الاستعمار ودعاته، واستطاع ببعد نظره، وحكمته أن يتغلب عليهم، وأن يرسم خطوطاً متينة سار عليها أتباعه من بعده⁽¹⁾.

وقد تكلمت جريدة (الماتين الفرنسية) عام 1912 م، عن البعد السياسي عند ابن السنوسي فقالت: «لم يكن مجيء السنوسيين إلى طرابلس وتوطينهم فيها من قبيل المصادفات والاتفاق، فهؤلاء أدركوا من زمن طويل أن الأوروبيين سيستولون على طرابلس الغرب بعد استيلائهم على الجزائر، ومراكش، فأرادوا أن يقعوا وراء ساحل طرابلس كالبنيان المرصوص ليدافعوا عن بيضة الإسلام عندما تطلق أوروبا أساطيلها بسهولة على تلك السواحل»⁽²⁾.

لقد كان ابن السنوسي لا يفرق بين الدين والدولة، بل كان يرى أن الدين والدولة كلٌّ لا يتجزأ، ولهذا كانت نظرته إلى الحياة نافذة، استمدتها من دينه الذي يدعو إلى الشمول، ولو كان البعد السياسي غائباً عن ابن السنوسي، لما حاربه حكومة السلطان مولاي سليمان في مراكش، ولما ناصبه العداء حكام الجزائر، ولما أوجس منه حاكم مكة خيفة، ولما تحرش به بعض علماء مصر، ولما اهتمت بشأنه دولة الخلافة، ولما فزعت منه دول الاستعمار رعباً وفي مقدمتها فرنسا، ولو كان كمثّل شيوخ الطرق الصوفية التقليدية لبقى معزراً محترماً ولعاش عيشة الخنوع والاستسلام⁽³⁾.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد -رحمه الله-: «وكان الشيخ السنوسي . بخلاف الغالب على مشايخ الطرق . خبيراً بأحوال السياسة العالمية فوقر في ذهنه أن النابليان أي الإيطاليين مغربون لا محالة على برقة في يوم قريب فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ويهيء في جوف الصحراء ملاذاً لمن تقصيههم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة»⁽⁴⁾ لقد اعتبر الأوروبيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دوفريه في غير اعتدال يصاب بحمي الهذيان، فيقول إن السنوسية خطر عام، خطر على أوروبا،

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص 108، 109.

(2) المصدر السابق، ص 116.

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص 97.

(4) انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص 132.

وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال أفريقيا وخطر على مصر⁽¹⁾.

أما السياسي الفرنسي المعروف المسيو هانوتو فيقول: «لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست بعيدة عن الأصفق التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً له أتباع وأنصار متعددون، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون» إلى أن قال: «ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد جبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في إفريقيا الجنوبية، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الإفريقية فإنه يوجد بالآستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكز عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها»⁽²⁾.

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد⁽³⁾.

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أفضت مضاجعها، ولم تكتف فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته⁽⁴⁾.

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: «استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في إفريقية واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية»⁽⁵⁾.

إن البعد السياسي عند ابن السنوسي، يتضح للباحث في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار، بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل البناء.

وتحدث آدمز عن ابن السنوسي وختم كلامه قائلاً: «وعلى أية حال فإن ابن السنوسي كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحس عملي دقيق للأحداث»⁽⁶⁾.

ووصفه ستودار بأنه «كان رجلاً شديداً الهيبة، بعيد الهمة، عظيم الاقتدار على التنظيم

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص 44.

(2) انظر: المصدر السابق.

(3) انظر: السيد محمد رشيد رضا لمحمد أحمد درنيقة، ص 202.

(4) المصدر السابق، ص 203.

(5) المصدر السابق نفسه..

(6) انظر: الحركة السنوسية، ص 165.

والإصلاح»⁽¹⁾.

وقال فيه المؤرخ التركي أحمد حلمي: «إن من يمعن النظر في عظمة المقتصد وجلالته وفي قدرة الوسائط وفقدانها وجسامة المشكلات التي اقتحمها المؤسس وقاسها على الجمعيات الأوروبية والشرقية لا يمكنه إلا أن يقف موقف الدهشة أمام عظمة هذا الرجل وبعد غور دهائه»⁽²⁾.

أما محمد الطيب فيقول في شخصية ابن السنوسي: «أمة قوية لا يتطرق إليها الضعف والوهن، فكان عدواً للجهل وخصماً للاستكانة، وضدّاً للأفكار العقيمة»⁽³⁾.

أما الزعيم الليبي السياسي الكبير بشير السعداوي فيقول: «مهما أوتي المؤرخون والكتاب والشعراء من قوة في البيان وإبداع في البلاغة وهم يتناولون الحقائق عن سيرة السيد السنوسي وأهدافه السامية التي يرمي إليها وقد حقق جزءاً منها، فلا يستطيعون إيفاء المقام حقه ولن يصلوا إلى معرفة هذا المصلح الإسلامي العظيم كما ينبغي، وكلما توالت الأيام والسنون، فهي تثبت لنا عظمة السنوسي، ونبل مقاصده السامية التي تصلح من شأن المسلمين»⁽⁴⁾.

وأما سالم بن عامر فيصف السنوسية فيقول: «هي طريقة أسست على حكمة علمية واجتماعية وإن أسس هذه الجمعية السنوسية هي الأخوة والتعاون» إلى أن يقول: «إن الجمعية السنوسية مع أنها طريقة مخصوصة فهي جمعية سياسية أفكارها ومقاصدها معلومة لدى خواص الإخوان والخلفاء، والمشايخ والزعماء...»⁽⁵⁾.



(1) الحركة السنوسية، ص 166.

(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص 178.

(3) انظر: المصدر نفسه، ص 177.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 184.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 178.